Science and Religion in the Light of Scientific and Religious Worldview

Ruhollah Musawi

PhD in Islamic Philosophy, Tehran University, Iran.

E-mail: s.r.musawi@aldaleel-inst.com

Summary

The great scientific development and its consequent results in the field of technology in recent times, led some people to go too far in defining the ability of science to answer all man's basic questions. So, they believed that science would be able be an alternative to religion in presenting a full worldview. This article tries to compare between the worldview coming out of science and the one that religion leads to, in order to provide a deeper picture of the issue of the relationship between science and religion; for the worldview coming out of science suffers from epistemological problems that refute its sufficiency to play the role of the main source that could meet man's cognitive needs and draw to him the outlines of his life. It is an incomplete view that does not care about all man's basic aspects, and it is not safe enough to conform with reality. As for religion, according to a systematic religious knowledge and being based on the philosophy of man's existence, it offers a complete, comprehensive and certain worldview that answers all man's basic questions and covers all aspects of his life. This view also explains some facts in the history of science, such as the scientific renaissance in Europe and the scientific backwardness of Muslims after they had experienced the golden scientific age.

Keywords: science, religion, reason, worldview, religious science.

Al-Daleel, 2022, Vol. 4, No. 4, PP.104 -129
Received: 8/1/2022; Accepted: 2/2/2022
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)
CC BY NC

Al-Daleel
مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies

الرؤية الكونية بين العلم والدين

روح الله الموسوي

دكتوراه في الفلسفة الاسلامية، جامعة طهران، ايران. البريد الإلكتروني: **s.r.musawi@aldaleel-inst.com**

الخلاصة

إنّ التطوّر الهائل الّذي حصل في مجال العلم وما أعقبه من نتائج على صعيد التكنولوجيا في العصور الأخيرة، أدّى ببعضهم إلى الإفراط في تحديد إمكانيات العلم وقدرته على الإجابة على كلّ تساؤلات الإنسان الأساسيّة، فاعتقدوا بأنّ العلم قادرٌ على أن يكون بديلًا عن الدين في تقديم رؤيةٍ كونيّةٍ كاملةٍ. يحاول هذا المقال أنّ يقارن بين الرؤية الكونيّة المنبثقة عن العلم وتلك الّتي يدلّ عليها الدين ليقدّم تصويرًا أعمق عن موضوع العلاقة بين العلم والدين؛ إذ تعاني الرؤية الكونيّة المنبثقة عن العلم من مشاكل معرفيّةٍ تنفي استحقاقه وجدارته لأن يلعب دور المصدر الأساس في تلبية حوائج الإنسان المعرفيّة وترسيم الخطوط العريضة لحياته، فإنّها رؤيةٌ ناقصةٌ لا تهتمّ بكلّ جوانب الإنسان الأساسيّة، وغير مأمونةٍ في مطابقتها مع الواقع، أمّا الدين ووفق معرفةٍ دينيّةٍ منهجيّةٍ ومن منطلق فلسفة وجوده فإنّه يقدّم رؤيةً كونيّةً كاملةً وشاملةً ويقينيّةً تجيب على كلّ تساؤلات الإنسان الأساسيّة، وتغطّي كلّ جوانب حياة الإنسان، كما توضّح هذه الرؤية بعض الحقائق في تاريخ العلم مثل النهضة العلميّة في أروبا وتخلّف المسلمين العلميّ بعدما جرّبوا العصر الذهبيّ العلميّ.

الكلمات المفتاحيّة: العلم، الدين، العقل، الرؤية الكونيّة، العلم الدينيّ.

مجلة الدليل، 2022، السنة الرابعة، العدد الرابع، صص. 104- 129

استلام: 2022/1/8 ، القبول: 2022/2/2

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

© المؤلف

CC BY NC

المقدّمة

لا شكّ أنّ العصر الحديث بما تمخّض من التقدّم والتطوّر الهائل في مختلف العلوم التجريبية، أفضى إلى مكتسبات مثيرة وإنجازات هامّة في مجال التقنية وتوفير الرخاء والعيش المريح للإنسان الحديث. لقد استطاع العلم أن يحقّق الكثير من أمنيّات الإنسان التي كان يحلم بها منذ ظهوره وعلى مدى العصور مثل الطيران وغزو الفضاء والتغلّب على المشاكل المختلفة في مجال الصحّة والنقل وإدارة المدن وغيرها ممّا كان يعاني منه على مرّ الألفيّات والقرون. إنّ البشر باستخدام العلم استطاع أن يقوم بعملٍ أفضل في كلّ المجالات وتمكّـن من أن يزيح الستار عن الكثير من الغاز الطبيعة ففتح أمامه آفاقًا جديدةً ومجالاتٍ واسعةً للبحث عن أسرار الكون؛ الأمر الذي جعل بعضهم يتصوّر أنّ قدرة العلم لانهائية وأنّ بإمكانه الإجابة عن كلّ تساؤلات الإنسان الأساسية والمصيرية ممّا يتعلّق بوجوده وكونه ومآله ومستقبله، فليس في هذا العالم إلّا ما تمّ تجريبه داخل المختبر. فلا مجال لسائر المصادر المعرفية ـ وفي مستهلّها الدين ـ لأنّ تلعب دورًا معرفيًّا في الإجابة على أسئلة الإنسان الأساسية وتكوين رؤية كونية صحيحة شاملة للإنسان.

هذا، ولكن هل أنتجت تلك الرؤية الكونية التي ترعرعت في أحضانها العلوم الحديثة وليد السعادة السوي الذي كان يُتوقّع منها للإنسان الحديث؟ وبالأحرى هل استطاعت العلوم الحديثة أن تسهم في بناء رؤية كونية شاملة للإنسان؟ وهل استبدلت هذه الرؤية الكونية تلك الرؤية الكونية التي يحصل الإنسان عليها من خلال الدين؟ ومن جانب آخر، ما هي مواصفات الرؤية العلمية، وما هي ميزات الرؤية الكونية الدينية وامتيازاتها؟ وكيف يتمثّل دور الدين في الخارطة المعرفية التي ترسمها هذه الرؤية ضمن خطوطها العريضة؟

نظرًا لموضوعية دور الرؤية الكونية في تحديد مسير حياة الإنسان ومصيرها وفي تصوير نمط حياته وسعادته، فمن الضروريّ أن نسبر المبادئ المعرفيّة التي قد يكون لها دور في تكوين الرؤية الكونية لدى الإنسان ونقيّمها، ومن أبرز هذه المصادر المعرفية بل أهمّها هما الدين والعلم، فنحاول في هذا المقال وبمنهج عقلي وتحليلي أن نسلط الضوء على كفاءة كل منهما لتقديم رؤية كونية كاملة وشاملة يضمن السير عليها سعادة الإنسان والوصول إلى منتهى كماله اللائق به.

أوّلًا: مدخل تمهيدي

1ـ تعريف العلم

إنّ ما يعادل مفردة (Science) الإنجليزية هو ما نقصده من العلم هنا، أي المعرفة المنظمة التي تعبّر عن خصوص ما يكتسب بالحسّ و الاستقراء في مجال عالم الطبيعة وقوانينها وشؤون المجتمع، وهو ما

يشمل العلوم الطبيعية والفيزيائية والعلوم الاجتماعية. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 61]

إنّنا ومن خلال الدقّة والإمعان في تعاريف العلم، يمكننا القول إنّ ذلك المفهوم الأساسي المحوري في تعريف العلم هو منهجه، وهو المنهج التجربي الحسّيّ؛ ولذلك يأتي الكثيرون على ذكر عنوان "التجربي" باعتباره قيدًا توضيحيًّا. وبهذا لا ينحصر العلم المبحوث عنه بالعلوم الطبيعيّة مثل الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء، بل يشمل العلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم التي تتّخذ من التجربة منهجًا لها.

2ـ تعريف الدين

لقد وردت تعاريف متعدّدة عن الدين في لسان المفكّرين والباحثين، ولكن ما نقصده من الدين في هذا البحث هو مجموعةٌ من الحقائق والقيم التي وصلت إلى الناس عن طريق الوحي (القرآن والسنّة) لأجل هداية الإنسان. [خسروپناه، كلام جديد با رويكرد اسلامى، ص 128]

وعلى الرغم من وحدة النصوص الدينيّة ـ لا سيّما القرآن ـ في الإسلام، ولكن الاختلاف في فهم النصوص ووجود تفسيراتٍ متعدّدةٍ لها تسبّب في بروز قراءات متعدّدة عن الدين، أدّت أحيانًا إلى ظهور مدارس وحتّى مذاهب دينية مختلفة. وعلى هذا الأساس فنحن نتعاطى بصورة مباشرة مع ما نفهمه من الدين وفي ضوئه نحاول الاقتراب من الدين. نعم، من الممكن أن نخطئ في الفهم وإصابة الدين الواقعي. وعلى هذا المبنى، فإنّ المقصود من الدين في بحثنا هذا والذي نريد في ضوئه أن نقارن بين الرؤية الكونية المنبعثة عنه (أي الدين)، وبين الرؤية العلمية المنبثقة عن العلم التجربي هي المعرفة الدينية. ولكن لا يعني هذا تساوي كلّ القراءات في الاعتبار والصحّة، بل إنّ المراد هو المعرفة الدينية التي تطابق الدين أكثر من أيّ معرفة أخرى، من خلال اتّصالها بالدين عن طريق وسائط معصومة، بحيث تحاول أن تقرأ الدين بموضوعية ومنهجية. وبهذا فإنّ المعرفة الدينية التي نصبو إليها هي المعرفة الدينية المنبثقة عن الاجتهاد وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

3ـ تعريف الرؤية الكونية

إنّ الإنسان بخلاف الحيوانات، إذ يُدرك العالم وله معرفة به. فمع أنّ لبعض الحيوانات قوًى إدراكيةً حسّيّةً قد يكون بعضها أقوى من الإنسان إلّا أنّها تفتقر إلى معرفة العالم؛ إذ لا يمكن لها أن تقدّم تفسيرًا أو رؤيةً عنه. فالإنسان من دون الحيوان له رؤية كونية عن العالم. والرؤية الكونية هي نوع من

التفسير عن العالم والوجود تعتمد عليها كلّ مدرسة بوصفه مبنًى فكريًّا لتلك المدرسة. [مطهرى، مجموعه آثار، ج 2، ص 75]

وفي رؤية أخرى، تعبّر الرؤية الكونية (World View) عن الإنطباعات التي يحملها الشخص أو المدرسة الفكرية عن العالم والكون، والتي تتولّى تقديم تفسير للظواهر الكونية، وبعبارة أخرى هو تفسير الإنسان للكون، ويمكن أن تستند مجموعة الرؤى تلك إلى العلم أو الفلسفة أو الدين. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 13]

إنّ الرؤية الكونية أخصّ من الأيديولوجيا إذا اعتبرنا الأخيرة ما يشمل رؤية الإنسان حول نفسه والكون وكيفية سلوكه المنبعث عن تلك الرؤية. وهي مختلفة عن الأيديولوجيا إذا اعتبرنا الأخيرة بمثابة حقل معرفي يهتمّ بالجانب العملي وتبيين ما ينبغي وما لا ينبغي (الحكمة العملية)، وبالتالي فإنّها تتميّز عن الرؤية الكونية التي تهتمّ بما يوجد وما لايوجد (الحكمة النظرية). [انظر: مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ص 28 و29؛ مطهرى، مجموعه آثار، ج 13، ص 340 و341]

ثانيًا: الرؤية الكونية المنبثقة عن العلم

إنّ الرؤية الكونية التي تنشبق عن العلم هي رؤية على العالم من نافذة النظريات العلمية التي يحصل عليها العالم في هذه العلوم من خلال المنهج التجريبي البحت، وعلى غرار ذلك يقرّر الحقيقة والواقع حول الكون الذي يشمل الإنسان نفسه.

في البداية ومع ازدهار العلم كان هناك مبالغة في قدرة العلم على تبيين كلّ الغوامض والمجهولات والإجابة عن التساؤلات كافّةً. ولكن انخفض هذا التباهي بالعلم، وتعرّضت الأسس العلمية لجدل شديد في الغرب نفسه، فأصبح هذا الأخير يتعامل اليوم بحذر مع تعميم النتائج العلمية إلى المستويات التي لم تتعرّض للاختبار. إنّ من يعتمد على العلم بوحده في اكتشاف الحقائق يتجاهل بأنّ العلم ذاته بحاجة إلى توجيهٍ ميتافيزيقيٍّ دائمٍ، وهو يطرح العديد من المسائل التي لا نترقّب منه أن يقدّم إجابةً عليها. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 47 و48 و68]

مع ذلك، لم يتنازل الملحدون عن تبجّحهم بالعلم وتشبّثهم به لتكوين رؤية كونية تضيء كلّ جوانب الحياة الإنسانية.

ولكن أين تكمن الحقيقة؟ هل يمكن للعلم التجريبي أن يزوّد الإنسان برؤية كونية صحيحة؟ إنّ الدقّة والإمعان في المباني المعرفية للمنهج التجريبي وحقيقة النظريات العلمية وكيفية تكوينها، تكشف عن ملاحظاتٍ جادّةٍ حول هذا الادّعاء نستعرض بعضها:

1ـ أنّ التمسّك بالعلوم التجريبيّة ونظريّاتها كمصدر وحيد لتكوين الرؤية الكونية هو نوعٌ من التعصّب والحكم المسبق؛ لأنّ المتمسّك بالنظريّات التجريبية المكتفي بها في تكوين رؤيته الكونية، لا يأبه بالعوامل غير المادّية في دراساته، ولا يعتني بالآثار والتأثيرات المنبعثة عنها، ويتعامل معها معاملة الأمور العدمية غير الواقعية، فيحكم بصورة ضمنية ومن البداية وحتّى قبل البحث العلمي بعدم وجود حقائق غير مادّية. يُعرف القائلون بهذه المدرسة والمتمسّكون بهذة الرؤية بالوضعيين، وقد بلغ الأمر ببعض المتشدّدين منهم وهم الوضعيون المنطقيون (logical positivists) إلى ادّعاء خلوّ القضايا غير الحسّية والتجريبية من الدلالة والمعنى. فالقضايا القابلة للتأييد الحسّي فقط يمكن أن تكون صادقةً أو كاذبةً

[Carroll David W., Purpose and Cognition, p. 127]

مع أنّ نفس هذا الادّعاء ليس قضيةً تجريبيةً؛ لأنّها ليست موضوع معالجة العلوم التجريبية ولايمكن إجراء التجربة الحسّية عليها [1].

2ـ أنّ الرؤية الكونية الحاصلة عن العلوم التجريبية هي رؤية ناقصة؛ إذ إنّها أغفلت جانبًا مهمًّا من الحقيقة وبعدًا هامًّا من الواقع، وهي الأمور والعوالم غير المادّية التي لا يمكن أن تقع تحت مجهر الدراسة التجريبية، بل تتداولها يد الدراسة العقلية الميتافيزيقية وحسب. فهي غير قادرة على أنّ تدرس وتعالج نفسها، كيف لا ودراسة اعتبار الرؤية الكونية هو أمر ميتافيزيقي وليس تجريبيًّا.

ونحن نتساءل هل هناك عالم غير مادّي أم لا؟ فلا يمكن للمعرفة التجريبية أن تجيب على هذا السؤال؛ لأنّ موضوع المعرفة فيها هي الأمور المادّية، ودائرة الحكم والمعالجة فيها محدود بالعالم المادّي وساكت عن العالم الميتافيزيقي.

ومن هذا المنطلق، تعطي الرؤية العلمية المحضة صورةً ناقصةً عن الإنسان كما كانت تعطي عن الحقيقة. لنفترض أنّ الإنسان له بعد مجرّد وهو نفسه وروحه، فإذا اقتصرنا على التجربة الحسّية بوصفها الأداة المعرفية الوحيدة، فلن يحصل للإنسان الاطمئنان بأنّه حصل على الصورة الكاملة لحقيقة نفسه أبدًا. وهكذا كيف يمكننا أن نتوقّع علومًا إنسانيةً صحيحةً تصف لنا الإنسان المحقّق والإنسان

---

1 كان الوضيعون المنطقيون في البداية قائلين بأنّ القضية يجب أن تكون قابلةً للتأييد الحسّيّ لكي تكون ذات معنًى، ولكن انتبه بعضهم أمثال رودولف كارناب (Rudolf Carnap) إلى أنّه يلزم هذا المعيار خلوّ القضايا العلمية عن المعني لمشكلة الاستقراء المعروفة؛ لأنّه لا يمكننا تجربة كلّ مصاديق الحكم الكلّيّ للوصول إلى تأييده، فعلي هذا الأساس اقترح معيار قابلية التجربة الحسّيّة معيارًا للقضايا العلمية لكي تكون ذات معنًى.

[Hunt Shelby D., Controversy in Marketing Theory: For Reason, Realism, Truth, and Objectivity, p. 216]

المطلوب لكي يصف لنا طريقة الوصول من الأوّل إلى هذا الأخير؟

3ـ يحبّ الإنسان بل يرى من الضروريّ أن يحصل على معرفةٍ واقعيةٍ عن العالم والإنسان، معرفةٍ راسخةٍ ثابتةٍ محكمةٍ لا تتغيّر ولا تتبدّل. وعلى أساس هذا المبدإ، نحن نحاول أن نحصل على رؤية كونية صحيحة تحكي لنا الواقع والحقيقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تهتمّ النظريات العلمية بكشف الحقيقة دائمًا، وإن حاول علماء الطبيعة فهم الطبيعة وكشف قوانينها إلّا أنّهم لا يلتزمون بالمنهج الواقعي بوصفه منهجًا للبحث العلمي

[Barbour Ian G, Issues in Science and Religion, p. 164]

ومن ثمّ إنّها في الواقع في معرض التغيير والتحوّل دائمًا، فاقتراح التنبّؤات على أساس النظرية وإجراء الاختبارات في المختبر لتقييم تلك التنبّؤات هو الطريق المرسوم في العلوم التجريبية لتقييم النظريات والبحث عن صحّتها. فتوظيف النظرية وفعّاليّتها ونجاحها في التنبّؤ أعمّ من أن تكون تلك النظريّة مطابقةً للواقع أم تخالفه. إذ كم من نظريات ناجحة في التنبّؤ أو تتمتّع بالانسجام (coherentism) أو الجمال (beauty of theory)1 – وهما معياران آخران يعتقد بهما بعضهم لصدق النظريات العلمية ـ إلّا أنّها لا تعكس الواقعية. فعلى سبيل المثال أنّ نموذج بطليموس الذي كان يعدّ الأرض محورًا للكون مع ما يقترحه من أفلاك التدوير كان ولا يزال يعمل بصورة ناجحة في التنبّؤ عن مواضع الكواكب والنجوم والظواهر النجومية، مع أنّه قد ثبت عدم انطباقه على الواقع، ومن هنا استُبدل بنموذج كوبرنيكوس الذي يعدّ الأرض كوكبًا يدور حول الشمس.

4ـ أنّ المراعاة الدقيقة والتامّة للمنهج التجريبي من أجل إبداء نظريةٍ ما أمرٌ غير ممكن، ولا يلتزم به العالم الطبيعي البتّة. فتتبّع النظريات العلمية ودراستها عن قرب يثبت بأنّ الرؤية العلمية تقفز في المرحلة الأخيرة من طرح النظرية قفزةً معرفيةً من أجل بناء نظرية كلّيّة مستندة على مجموعة من الشواهد والتجارب الجزئية، وهذا ما يعرف بأسلوب الاستقراء الذي يشكّل حجر الزاوية للمنهج التجريبي الذي ينتهي في سيره العلمي إلى النظريات العلمية الكلّيّة. [see: Popper, Karl Raimund, The Logic of Scientific Discovery, p. 4-5]

ليس هذا فحسب، بل إنّ هناك من النظريات المعروفة باعتبارها نظرياتٍ علميةً، ويُعترف بها في المحافل العلمية إلّا أنّها لم تحصل من خلال التجربة والمشاهدة والاستقراء مثل نظرية الانفجار العظيم (Big Bang theory) الذي لم يشاهده أي إنسان، ولم يحدث على فرض حدوثه إلّا مرّةً واحدةً، مع أنّ التجربة تقتضي تكرار المشاهدة.

1- Refer: Girod, Mark, A Conceptual Overview of the Role of Beauty and Aesthetics in Science and Science Education, Studies in Science Education, January 2007, 43(1): 38 - 61.

5ـ من الخصوصيات التي لها أهمّيّة بالغة في تقييم أيّ رؤية كونية هي القيمة المعرفية التي تتمتّع بها تلك الرؤية. وهذا من نقاط الضعف التي تعاني منها الرؤية الكونية التجريبية، فإنّها بسبب طبيعة النظريات العلمية التي تعتمد على الاستقراء الناقص، وبناءً على أهمّيّة البعد الوظيفي فيها الذي مرّ بنا في النقاط الماضية، لا ترتقي إلى مستوى اليقين المنطقي، بخلاف الرؤية الدينية التي تصل القيمة المعرفية في أصولها الأساسية إلى مستوى اليقين. إنّ المباني المنطقية الضعيفة للوضعية وأسسها الفلسفية الهشّة أدّت إلى استنتاجات ضعيفة ونتائج متناقضة في الآراء الميتافيزيقية لدى الوضعيين. على سبيل المثال إنّ ما ترتّب عن نظرية داروين من نتائج ولوازم لم يكن خارجًا عن نوع خاص من ميتافيزيقيا، وإنّما كانت ميتافيزيقيا خاطئةً في مبانيها. فحتّى على فرض قبول نظرية داروين، فإنّه لا يترتّب عنها منطقيًّا تلك النتائج التي ذكرت لها.

[Sweetman, Evolution, Chance, and God, p. 7]

والمثال الآخر هو قول الوضعيين بالصدفة في موضوع التطوّر لنفي الغاية والتصميم من وراء الطبيعة من جانب، وقولهم بالموجبية العلّيّة في نفي الإرادة والاختيار الإنساني وتقليل دور الذهن والتعقّل في الأمور الفيزيولوجية [Sweetman, Evolution, Chance, and God, p. 208]، أو في نفي إمكان تدخّل الإله في الظواهر الطبيعية من جانب آخر، في حين أنّ هناك تناقضًا واضحًا بين الصدفة والموجبية العلّيّة.

6ـ من جملة الطرق والآليات التي يمكننا أن نأخذها بعين الاعتبار في تقييم المدارس الفكرية والرؤى الكونية هي أن ندرس آثارها والنتائج المترتّبة عليها في حياة الإنسان من حيث تعاليه وضمان كماله وسعادته. ولكنّ العصر الحديث لم يؤمّن تلك السعادة المتوقّعة، بل حصلت في حياة الإنسان وتحت ظلّ هذا التقدّم مشاكل كبيرة لم يسبق لها مثيلٌ ـ كالاكتئاب المفرط والاضطراب الشديد ورؤية الإنسان حياته بشكل قاتم وبدون أيّ معنًى ـ وكوارث مدمّرة من صنع الإنسان لم يسبقها مثيل كالحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين أزهقتا أرواح الملايين، ومثل التلوث البيئي وازدياد حرارة الأرض نتيجةً لازدياد الغازات الدافئة والاحتباس الحراري، ومثل الأمراض الحديثة الذي ظهرت نتيجةً لنمط الحياة الذي أدّى إليه العلم والتقنية الحديثين. ولا شكّ أنّ هناك رؤيةً كونيةً خلف الفكر الغربي تمخّضت عنها كلّ هذه الظواهر العلمية والتكنولوجية في الغرب، فما نراه في الغرب على مستوى الفكري والتقني وما يعانيه من الأزمات والمشاكل الأخلاقية والنفسية والاجتماعية ليس إلّا ظهورًا وتجلّيًا لهذه الرؤية الكونية.

ثالثًا: الرؤية الكونية المنبثقة من الدين

إنّ وظيفة الدين الأصلية ـ بخلاف العلم ـ هي إعطاء رؤية كونية صحيحة ومطابقة لواقع الإنسان. فقد جاء الدين ليقدّم للإنسان إجاباتٍ صحيحةً على أسئلة مثل: من هو الإنسان؟ من أين أتى؟ وأين هو الآن؟ وإلى أين يذهب؟ ما السعادة والكمال؟ وكيف يمكن للإنسان بلوغ الكمال المخصّص له؟

قد يقال ـ كما اعتقد الحداثيون فعلًا ـ إنّ العقل وحده هو الوحيد المسؤول عن الاجابة على هذه الأسئلة وحسب، فلا يحتاج، حيث لا يحتاج الإنسان الذي زُوّد بقوّةٍ مثل العقل إلى من يعلّمه فلسفة الحياة ومن يجيب على أسئلته الأساسية [انظر: الموسوي، القرآن والعقل الحداثي، ص 21]، فما موضع الحاجة إلى الدين في هذا المضمار؟ وكيف تتميّز الرؤية الكونية المتحصّلة عن الدين عن الرؤية الكونية التي ينادي به العقل؟

1ـ دور العقل في الرؤية الكونية الدينية

لم يأت الدين لتحجيم العقل أو تهميشه، بل أتى ليكمّله ويقوّيه. فإذا شبّهنا العقل بمحرّك سيّارةٍ تسير في ليلةٍ مظلمةٍ، فإنّ الدين الصحيح يوفّر له الوقود لكي يشتغل وتنطلق السيّارة، فإنّ الدين يوفّر للعقل مقرابًا (telescope) ليشاهد مجالًا أوسع وأبعد في الآفاق والأنفس ليكشف ما لم يكد يراه بعين العقل المجرّدة. لقد أتى الأنبياء بالوحي الديني للناس ليستأدوهم ميثاق الفطرة وليثيروا لهم دفائن العقول. [انظر: نهج البلاغة، الخطبة الأولى]

وفي الحقيقة، إنّ للعقل دورًا كبيرًا في تكوين رؤية الدين الكونية، والدين يخضع كلّ أصوله وأسسه لتقييم العقل وتحميصه. فللعقل الدور الرئيسي في الفهم والاستدلال والاستنتاج والحكم حين اختيار الدين وبعده. بخلاف المدارس التي تعادي العقل في اختيار الدين أو تحجّم دوره في اختيار الدين الصحيح، وبعد اختياره تستهين بدور العقل في الحصول على المعرفة الدينية. إنّ الرؤية الصحيحة التي تنبعث عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام تنادي بمحورية العقل حتّى في إثبات الأحكام الدينية. فلا يليق تهميش دور العقل وعدم الرجوع إليه في استنباط فروع الدين، بعدما كان هو المرجع الوحيد في الحكم في أصول الدين وإثباتها. [انظر: المظفر، أصول الفقه، ج 2، ص 129]

مع كلّ هذا، فإن العقل بنفسه يستقلّ بالحكم بأنّه لا يعرف كلّ شيء ولا يمكنه الحكم في جميع الأمور، فإنّه ومع كلّ قدراته محدود. [انظر: الموسوي، القرآن والعقل الحداثي، ص 34]

لم يطل التباهي بالعقل لدى الحداثيين كثيرًا أيضًا، فإنّهم تنازلوا عن موضعهم السابق بعدما شاهدوا الفجائع والفضائح التي أدّى إليها العقل الحداثي من الحروب والاستعمار وتلويث البيئة

وغيرها، ممّا حدا بهم إلى أن ينزّلوا العقل عن تلك القمة المرموقة، وحتّى يأخذ موضعًا عدائيًّا لدى بعضهم بالنسبة إليه في مشروع ما بعد الحداثي [انظر: الموسوي، القرآن والعقل الحداثي، ص 32 و70]، أمّا موضع العقل في الرؤية الإسلامية فهو موضع محوري لا يستهان به من جانب، ومن جانب آخر لا يتحمّل أكثر ممّا يمكنه أن يتحمّل.

2ـ العلم وفق الرؤية الكونية الدينية

إنّ الدين يقدّم رؤيةً كونيةً كاملةً وصورةً شاملةً عن الحقيقة، بل يرسم للإنسان خريطةً تشمل كلّ أبعاد حياته المعرفية والعملية. إنّ هذه الرؤية تقدّم العالم بصورته الحقيقية التي لا تنحصر بالعالم المادّي، بل بعوالم حقيقية لا تنالها يد الحسّ كما تقدّم العالم المادّي غير منقطع عن منشئه ومبدئه ومنتهاه. إنّ المعرفة العلمية بفضل هذه الرؤية الشاملة تجد مكانها الحقيقي ومكانتها الصحيحة في هيكلية المعرفة الإنسانية، وعليه فإنّ المعرفة العلمية إذا ما تمتّعت بفلسفة متقنة في أسسها المنطقية وخلفياتها المعرفية، ووقعت ضمن شبكة معرفية متينة عامّة، فإنّها لا تقع في استنتاجات خاطئة ميتافيزيقية ولا يترتّب عليها نتائج ولوازم معرفية خاطئة، بل تساهم في بناء رؤية صحيحة ومفصّلة.

إنّ تأثير الرؤية الكونية الصحيحة في الدراسات العلمية يتّضح بصورة أجلى وأوضح في العلوم الإنسانية التي تحاول أن تعطي صورةً صحيحةً عن الإنسان، فالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية تسعى لوصف الإنسان الكامل وطريق الوصول من البداية إلى النهاية لتحقّق غاية الوصول للكمال الإنساني [خسروپناه، در جستجوى علوم انسانى اسلامى، ج 1، ص 570]، ولا شكّ أنّ للدين دورًا في كلّ هذه الحقول والمجالات الثلاثة، بل إنّها هي الغاية الرئيسة من إنزال الأديان وهي فلسفتها الأصلية. إنّ الدين هو نعم العون للعلوم الإنسانية لكي تعرف الإنسان ومبدأه ومقصده وغايته وكماله والعالم الذي يعيش فيه؛ وبالتالي لكي تعطي له توصياتٍ أفضل وإرشاداتٍ أكمل. إنّ العلم بهذه الصورة ينطلق في حركةٍ مبدؤها في صالح الإنسان ليبلغ غاية تنفعه، كما يجعله يهتمّ بموضوعات وحقول غايتها هو خدمة الإنسان وسموّه المادّي والأخلاقي والمعنوي، وليست إلحاق الأضرار عليه وإحباطه. [انظر: موسوي، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، ص 52 ـ89]

لم يشكّل العلم وتطويره والتعمّق فيه على مرّ العصور أيّ نوع من الابتعاد عن الدين في المجتمع الإسلامي؛ وذلك لأنّ الميتافيزيقا والفلسفة عند المسلمين قد حظيت بالإتقان والمتانة، وبنيت على أساس البرهان، فعلماء الطبيعة عند المسلمين كانوا علماء دينٍ في الوقت نفسه. فعلى أساس الفلسفة الإسلامية لم يكن هناك أيّ تعارض بين العلّيّة المفروضة في العالم المادّيّ مع المشيّة الإلهية وإرادته بتاتًا؛ فإنّ مضامين النصوص الإسلامية ما فتئت تشجّع المسلمين على العلم والتعلّم. نعم، دار النقاش

بين العلماء في مدلول كلمة "العلم" في النصوص الإسلامية، وهل أنّه يدلّ على العلوم الدينية أم يشتمل على النافع من العلوم كالعلوم التجريبية مثل الفيزياء والكيمياء والعلوم الاجتماعية ممّا هو معروف اليوم. ولكن يمكن الأخذ بالإطلاق في كثيرٍ من الروايات لتمامية مقدّمات الحكمة من عدم وجود قرينة حالية أو مقالية على التقييد، وعدم وجود قدر متيقن في مقام التخاطب وعدم انصراف العلم إلى العلم الشرعي لاستخدامه في غير العلوم الدينية في القرآن، حيث قال ﷻعلى لسان قارون في طريقة اكتسابه للأموال والكنوز: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [سورة القصص: 78]. فهذا القول يشير إلى أنّ قارون كان لديه علم الاقتصاد الخاصّ به، والذي اكتسبه بطريقته الخاصّة. غير أنّ مشكلة قارون كانت تكمن في أنّه كان يعلم شيئًا وغاب عنه شيءٌ آخر، أو أنّه لم يرد أن يلتفت إلى ما وراء ذلك، وهو أنّ المال مهما كان كثيرًا ليس العامل الوحيد لضمان سعادته وتأمين سوء العاقبة، فيقول الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [سورة القصص: 78] ... وفي مقابل ذلك، ذهب أتباع العلم الحقيقي إلى رفض هذه النظرة والردّ على أتباعها ممّن انبهروا بمكتسبات قارون، وكانوا يأملون أن يكونوا مكانه، وقد قرّر القرآن قولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [سورة القصص: 80]. فهذه الآية الكريمة القرآنية التي تحكي قصّة قارون تشير إلى وجود نوعين من العلم: علم "عندي" الذي ليس له أيّ علاقة بالوحي والمعرفة الدينية، وعلم "من عند الله" الذي ينظر إلى العالم من منظار جامعٍ إلهيٍّ دينيٍّ.

هذا، ولكنّ المتأمِّل في أوضاع المسلمين وأحوالهم الحالية، وارتباطهم مع العلم وكيفية مواكبتهم له على أرض الواقع يشاهد حالةً أخرى؛ ففي هذه العصور المتأخّرة لا يوجد في الواقع الخارجي تطابقٌ مع ما هو مبثوثٌ في النصوص حول أهمّية الاهتمام بالعلم. من هنا يجدر البحث والتأمّل في علل تأخّر المسلمين العلمي، بعدما كانوا من المتفوّقين في مجال العلم ومن روّاده في العالم. فكيف تغيّرت رؤية المسلمين عن العلم، وقد كانوا لا يجدون تعارضًا بين العمل العلمي والفكر الديني، بل كانوا يعدّونه عبادةً وعملًا دينيًّا؟ فهل يعدّ هذا الواقع الميداني مورد نقضٍ لما بيّنّاه نظريًّا حول دور رؤية الدينية، ولا سيّما الإسلام في الاهتمام بالعلم وتطوّره؟ إنّ من الضروري أن نرصد بنظرة تحليلية دور الدين في الواقع التاريخي وأحداثه نظير النهضة العلمية الأوربّيّة، كما يجب أن ندرس العوامل التاريخية الميدانية التي أثّرت في التأخّر العلمي للمسلمين.

3ـ دور الرؤية الكونية الدينية في النهضة العلمية والتقنية الغربية

على الرغم ممّا اشتهر على لسان عوامّ الناس وغير المتخصّصين من أنّ المانع من التقدّم في مجال العلم

والتقنية في الغرب كان الدين والكنيسة وتصرّفاتها؛ إذ إنّ النهضة في الغرب قد حدثت بعد محاولة إزاحة الدين وتهميشه، ولكنّ البحوث والدراسات الأكثر عمقًا تشير إلى أنّ الحقيقة هي شيءٌ آخر؛ إذ إنّ للدين دورًا هامًّا في بدو هذه الحركة. فعلى سبيل المثال درس الخبراء سبب ازدهار العلم الحديث في أوربّا وتخلّفه في الصين أو الهند خلال ذات المدّة الزمنيّة، واعتقدوا أنّ لذلك علاقةً بلون الرؤية والأيديولوجيا التي سادت الصين والهند وأروبّا. فلم يكن في وسع العلم الحديث أن يظهر في أحضان الثقافة الصينية؛ لأنّ الطاوية[1] تعتقد أنّ العلل الحقيقية لظواهر الطبيعة هي أمور روحانية خفيّة فقط، كما أنّ تعاليم كونفوشيوس التي راجت هناك تؤكّد الأخلاق والسلوك الاجتماعي، بينما تهمل قضايا الوجود والطبيعة. ولم يتمكّن العلم من تحقيق تقدّم في إطار الثقافة الهندية التي كانت تعدّ المنهج التجريبي وهميًّا ولا يتمتّع بالواقعية، والهدف الأصلي الغائي التي ترسمه هذه المدرسة هو التحرّر عن هذا العالم الذي يشبه فخًّا بدورات لا نهاية لها من الولادة والموت. فيما كان الإنسان الغربي النصراني يعتقد أنّ العالم ظاهرة إيجابية؛ لأنّه خلق من قبل الله العادل، كما أنّه قابل للتعقّل والاكتشاف؛ لأنّ خالقه حكيم ومدبّر، ويمكن الإنسان أن يستوعب الظواهر الكونية؛ لأنّ الله أمر البشر بإعمار الأرض واستيفاء خيراتها، وهو ﷻ لا يشرّع أوامر تعجيزية. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 19]

وعلى العكس الاعتقاد القائل بأنّ الرؤية الكونية الدينية كانت مانعًا أمام تطوّر الإنسان الغربي، يعتقد بعض المفكّرين بأنّ المانع كان الفلسفة اليونانية على وجه العموم، ورؤية أرسطو على وجه الخصوص التي هيمنت على الأوساط العلمية والأكاديمية والفكر الفلسفي والمعرفي الغربي، أمّا الباعث على النشاط العلمي ودراسة الطبيعة كان الرؤية الكونية الدينية. ففي نظر هؤلاء أنّ أرسطو قد أهمل التجربة أو المشاهدة الدقيقة للأجسام المادّية نتيجةً للرؤية التي كان يعتمدها في تقسيم الجسم إلى مادّةٍ وصورةٍ. فقد كان يميّز الصورة عن المادّة في الأجسام المادّية. فالمادّة الأولى (أو الهيولى) ـ وهي المادّة الفلسفية وليست المادّة الفيزيائية بمعنى الجسم ـ هي قوّة واستعداد الأشياء ليس إلّا، أمّا الصورة فهي التي تحمل على المادّة وتعطي الفعلية والتأثير. وفقًا لهذه الرؤية، فإنّ صورة الشيء إذا حصلت لدى العقل عن طريق تحليل الأشياء بواسطة التعريف، فإنّ طبيعته وماهيته وخصوصيّاته كافّةً، تكون معلومةً لدى الإنسان. وبالتالي فإنّها تغني الإنسان عن دراسة الموجود العيني المادّي بالملاحظة الحسّية

---

1 ـ النظام الديني والفلسفي الصيني، يتّخذ العديد من الأشكال المختلفة، ويؤثّر بشكل كبير على الديانات الأخرى، وخاصة البوذية.

[see: Bowker, John, The Concise Oxford Dictionary of World Religions, p. 14513]

الكتاب المقدّس الأوّل والأكثر تأثيرًا في الطاوية هو بلا شك كتاب "داوديجنغ" (Tao Te Ching) ويقال إنّه كتبه الفيلسوف الحكيم لاوتسو (Laozi).

[Pye, Michael, Macmillan Dictionary of Religion, p. 61]

الدقيقة والتجربة. فالمنهج العقلي الذي كان متّبعًا في دراسة الموجودات غير المادّية هو نفسه يتّخذ في دراسة الموجودات المادّية.

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 246]

هذه الرؤية نفسها كانت السبب في تقويض المنهج الرياضي والقياسات الرياضية في الفيزياء القديمة. فعلى سبيل المثال كانت الرؤية السائدة في الفيزياء القديمة أنّه لو ألقى شخص بجسمين مختلفين في الوزن من ارتفاع ما فإنّ الجسم الأثقل وزنًا يصل إلى الأرض قبل الآخر، ولكن غاليلو أثبت بالمنهج الرياضي والتجربة خطأ هذا الاعتقاد، وأثبت أنّهما يسقطان معًا في آن واحد. فلو أنّ الإنسان يرى أنّ الريش على سبيل المثال يسقط بسرعة أقل من التفّاحة فإنّ ذلك ليس بسبب قلّة وزنه، بل بسبب تأثير مقاومة الهواء عليه؛ فلذلك فإنّ الريش والتفّاحة يسقطان على الأرض في زمان واحد عند عدم تأثير مقاومة الهواء.

لقد هيمنت النظرة الغائية ـ وليست الفاعلية ـ إلى الأشياء والظواهر الطبيعية على رؤية الفيزياء القديمة، وكانت هذه المسألة هي المعيار الذي اعتمده بعض المفكّرين في تحديد أطر الفيزياء القديمة ورسم ملامحها ونقطة التحول التي بتغييرها شُيِّدت أسس الفيزياء الكلاسيكية. فعلى سبيل المثال إذا سألنا الفيزيائي القديم: لماذا تنمو نواة البلّوط؟ فإنّ إجابته ستكون: كي تُصبح شجرة بلوط. أو إذا سألناه: لماذا تمطر السماء؟ فإنّه يقول: كي تسقي النباتات!

[Barbour, Issues in Science and Religion, p. 16 - 17]

ولكن لماذا يحلّل الفيزيائيون القدماء هذه الظواهر وفق هذه النظرة؟ يبدو أنّ علّة ذلك تكمن في أنّهم قد استلهموا هذه النظرة من رؤية كونية يونانية تعدّ الظواهر بمختلف أشكالها وألوانها مطابقةً للصورة الكائنة في عقل الإله والصادرة عنه بهذه الصورة بالضرورة. فالغايات الإلهية قد عيّنت لكلّ ظواهر العالم ما يجب أن تكون عليه، فلا يمكن لهذه الظواهر أن تتخلّف عمّا هي عليه. وهذا ما جعل المهتّمين بمعرفة الطبيعة يعنون بغايات الإله وليس بفعله الجبري.

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 245]

هذه النظرة إلى ظواهر العالم تغيّرت رويدًا رويدًا بسبب الثورة الكوبرنيكية ومنهجها الذي استقته ـ ولو بشكل خفي وغير مباشر ـ من تصوّر الدين المسيحي إلى العالم على أنّه صادر عن إلـه عاقل ومختار في الوقت نفسه، وقد اعتمدت في منهجها هذا على التجربة أداةً لفهم فعل الإله. وبهذا استُبدلت النظرة الغائية إلى الظواهر والأشياء بوصفها وتحليلها. لقد أفضت هيمنة الفكر الأرسطي على الأوساط الغربية بما في ذلك الكنسية إلى أن أصبحت النصوص الدينية تفسّر في ضوئه. بل تمتّعت هذه

التفسيرات بنوع من القداسة إلى الحدّ الذي اعتبرت فيه الرؤى المعارضة لها رؤًى معارضةً للدين نفسه. إنّ المتأمّل في المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية، والذي بدأ مع النهضة الكوبرنيكية يجد أنّه نوع من النظرة إلى العالم لم تكن خافيةً عن الرؤية الكونية للأديان الإبراهيمية، بل إنّه مستلهمٌ منها. والكثير من التعارضات التي قد يبدو أنّها وقعت بعد تلك الفترة بين الدين والنظريات العلمية لم تكن في واقع الأمر تعارضًا حقيقيًّا بين العلم والدين، بل كانت تعارضًا بين التفسير الأرسطي أو اليوناني للدين مع العلم.

ملاحظة

لقد عالجنا موضوع تأثير الرؤية الكونية في النشاط العلمي، ولكن السؤال الأساسي يكمن في موضوع علّة تقدّم الغرب علميًّا وتقنيًّا، وليس الشرق، فرأينا أنّ بعضهم سعوا بدقّة أن يسبروا الخلفيات الفكرية والفلسفية لهذه الانتقال الكبير من التخلّف إلى التطوّر الهائل الذي غيّر وجه حياة الإنسان، فاعتبروا تغيير الرؤية الأرسطية المهيمنة على الأوساط الفكرية والعلمية الغربية، التي تهتمّ بالصورة المعقولة دون المادّة، وبغايات الظواهر المادّية دون كيفياتها هو السبب الرئيس لهذا الانتقال. فتحوّلت الرؤية اليونانية الأرسطية إلى رؤيةٍ تهتمّ بالمادّة، ولم ترَ الظواهر أمورًا تجري بصورة جبرية عن عقل الإله، فهذا التغيير والانتقال في الرؤية جعل الأرضية ممهّدةً للاهتمام بالعالم المادّي ومعرفته. ولكن هذا القول بالإضافة إلى عدم قبوله من جانب بعض المفكّرين وتوصيفه بالإفراط،

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 212]

لا يخلو من بعض الملاحظات:

أوّلًا: أنّ الرؤية المسيحية كانت ترافق المجتمع الغربي أكثر من 1600 عام، فلم تبدأ هذه الثورة إلّا بعد مضيّ هذه الدورة الزمنية الطويلة، فإذا كانت هذه الرؤية المسيحية كافيةً في إيجاد هذا التغيير، فلم لم يحدث في عصر هيمنة الكنيسة على الغرب؟ أو على الأقل بعدما عُطّلت مراكز تعليم الفلسفة اليونانية في الغرب وانحسار الفكر المسيحي في الأوساط العلمية؟

ثانيًا: أنّ فكرة تمايز الصورة عن المادّة لا تلازم عدم الاهتمام بالعالم المادّي، بل هو أحد تجلّيات الاهتمام لفهم العالم المادّي والظواهر الموجودة فيه، كما أنّ تمييز إيمانويل كانط (Immanuel Kant) المشهور بين "نومن" و"فنومن"، والذي انجرّ إلى المثالية الألمانية لم يسبّب تأخّر الأوربّيّين، بل فتح نافذةً جديدةً أمامهم لفهم العالم. إضافة إلى أنّ المادّة الفلسفية التي تعرف بالمادة الأولى في الفلسفة تختلف عن المادّة الفيزيائية كما أشار إليه الحكماء. [انظر: مطهرى، مجموعه آثار، ج 8، ص 5]

ثالثًا: أنّ الباحث حول واقعة النهضة الفكرية الأوروبّيّة وجذورها والدارس لتاريخ العلم والفكر للغرب يرى بصمات رجوع الفكر والفنّ اليوناني في الأوساط الفكرية والعلمية والثقافية الغربية، الأمر الذي ساهم في اهتمام الغربيين بالعقل والفلسفة والمنهج العقلي. [انظر: الموسوي، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، ص 23]

إنّ النظرة التي يمكن الدفاع عنها من خلال الشواهد والمستندات التاريخية هي تغيّر رؤية المفكّرين الغربيين وتغيّر منهجهم في الدراسات والبحوث، وذلك من خلال استخدام العقل. وهذا المنعطف التاريخي تعود جذوره ـ من حيث المنهج المعرفي والفلسفي ـ إلى محاولات ألبرت الكبير (Albertus Magnus) وتوما الأكويني (Thomas Aquinas) ولا سيّما الأخير الذي حاول أن يقحم العقل الأرسطي في دراساته الكلامية وبحوثه الدينية بعدما كان محذورًا في أوساط الكنيسة المعرفية.

[see: King, D. Brett & others, History of Psychology: Ideas and Context, p. 94]

والأمر الذي لا شكّ ولا شبهة فيه هو التأثير العميق لآثار ابن سينا ودراساته على ألبرت وتوما، ويذعن مؤرّخو العلم اليوم حتّى في الغرب أن تعرّف الغربيين على تراث الفلسفة اليونانية ولا سيّما الأرسطية، كان من خلال آثار كلٍّ من ابن سينا وابن رشد، فقبول العقل أداةً معرفيةً والأخذ به في الغرب كان بسبب تأثير المفكّرين المسلمين.

[See: Gutas, Ibn Sina (Avicenna), Stanford Encyclopedia of Philosophy]

إنّ تأثير الفكر الفلسفي والعقلي الإسلامي على الأوربّيّين كانت بدرجةٍ انقسم العلماء الإلهيّون في أوربّا بين أتباع مدرسة ابن رشد المعروفين بالرشديين ـ ومعظمهم من الإلهيين المسيحيين ـ وبين أتباع مدرسة ابن سينا المعروفين بالسينيويين ومعظمهم من الإلهيين اليهود. [See: ibid]

فإذا أردنا أن نكون منصفين في الحكم حول سبب تطوّر العلوم في الغرب دون البلاد الشرقية، فلا بدّ أن لا نتجاهل التأثير الفكري والثقافي للفكر والحضارة الإسلامية ورؤيتها الكونية على الغرب، إلى جانب سائر الأسباب والعلل التي تشكّل كلّ واحدةٍ منها العلّة الناقصة لهذا التطوّر.

4ـ تخلّف المسلمين علميًّا

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كانت الثقافة الإسلامية من عوامل تطوّر الغرب وعلل تقدّمه، فلماذا لم يتقدّم العالم الإسلامي نفسه؟ بل تأخّر عن ركب العلم والتقنية، ولماذا لم تخدم هذه الثقافة نفسها في التطوّر والتقدم؟

لا شكّ أنّ للدين ـ بمعنى النصوص الوحيانية ـ تفسيراتٍ متعدّدةً انبثقت عن الميول والاتّجاهات والمفروضات المسبقة التي أخذ بها المفسّر والتي تترك بصماتها وآثارها على تفسيره. ولكن ليست كلّ هذه التفسيرات في مستوًى واحدٍ من حيث الصحّة والاعتبار؛ وذلك لوجود تفاسير متعارضة في بعض

الأحيان ومن الضروري عدم صحّة كلّ التفاسير المتعارضة. فهناك تفاسير خاطئةٌ بجانب التفسير الصحيح الذي يجب أن نتعرَّف عليه ونعترف به، ثمّ نحاول أن ندرس ربطها مع العلم. بعبارة أخرى ليس هناك تعارض بين الدين والعلم، بل يقع التعارض بين النقل والعلم [جوادى آملی، عقل در هندسه معرفت دينى، ص 13]، أو بعبارة ثانية بين المعرفة الدينية والعلم. فالحصول على المعرفة الدينية الصحيحة التي تحصل من خلال المنهجية والمباني التفسيرية الصحيحة هو أوّل خطوة للحصول على رؤية صحيحة حول العلم والدين. فمع اهتمام الدين الحقّ بالعلم والعقل اهتمامًا لا مثيل له بين المدارس الفكرية الأخرى، نجد بعض التيّارات الفكرية الخاطئة التي تنسب نفسها إلى الدين تأخذ موقفًا عدائيًّا مع العلم والعقل.

إنّ علّة تخلّف العالم الإسلامي عن ركب العلم بعد عصور ذهبية كان فيها الرائد دون الرقيب في العلم والمعرفة، تكمن في التخلّي التدريجي عن ما صدّره المسلمون إلى الغرب من الرؤية العقلية والاهتمام بالجانب المعرفي والعلمي.

وقد سادت بعض المدارس والأفكار التي لم تكن مهتمّةً بالعقل والمنهج العقلي على أقلّ تقدير، إن لم نقل إنّ لها موقفًا عدائيًّا تجاهه، وترفض العقل ودوره في المعرفة، وتهتمّ بالمنهج الكشفي كالصوفية [انظر: يوسفيان وشريفي، عقل و وحي، ص 16]، وكتيّار أهل الحديث الذي كان ينظر إلى ظواهر النصوص الدينية بوصفها المصدر الوحيد المعتبر للمعرفة. [انظر: سبحاني، الملل والنحل، ج 3، ص 9]

من جانب آخر، إنّ الفكر الأشعري ـ الذي كان يميل إلى فكرة الجبر ورفض الحسن والقبح العقليين [انظر: السبحاني، رسالة في التحسين والتقبيح، ص 71] ـ أتى ليقضي على دور العقل العملي في العالم الإسلامي؛ ليكمل عمل التيّارات التي كانت تنبذ دور العقل النظري جانب الإهمال والنسيان.

من أبرز الأمثلة على هذا التيّار الفكري هو أبو حامدٍ محمّدٌ الغزالي الذي كان في الوقت نفسه صوفيًّا وأشعريًّا، فموقفه المتشدّد ضدّ العقل الفلسفي معروفٌ غنيٌّ عن الذكر. فعلى هذا المنطلق، كان يحذّر الغزالي المسلمين عن مزاولة الرياضيات بذريعة أنّها تشبه الفلسفة، والمعروف عند الناس أنّ الرياضيات والفلسفة يشبهان بعضهما في الدقّة، ولأنّ الفلاسفة ـ في نظره ـ هم أهل الكفر والإلحاد؛ فبالنتيجة تسبّب الرياضيات أن يكون الإنسان قريبًا من الكفر والإلحاد [الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 19]. ولكنّ الذي يطالع المصادر الإسلامية يجد تأكيدًا على تعلّم العلوم والحكمة ولو من المشرك والمنافق. [انظر: الموسوي، القرآن والعقل الحداثي، ص 25 ـ 27]

رابعًا: الربط بين العلم والدين في ضوء الرؤية الكونية

إنّ مسألة كيفية العلاقة والربط بين العلم والدين هي من المسائل التي تعرّض إليها الكثير من أصحاب المدارس الفكرية المختلفة، وقد قدّموا نظرياتٍ ونماذج مختلفةً حولها. وربّما يتبادر إلى الذهن بصورة بدهية أنّ الإجابة على مسألة الربط بين العلم والدين لها دور مصيري في حكمنا حول تأثير الرؤية الكونية المنبثقة عن كلٍّ من العلم والدين في الآخر.

وبعبارة أخرى إنّ رؤيتنا عن كيفية العلاقة بين العلم والدين تحدّد رؤيتنا عن كيفية تأثير الرؤية الكونية لكلٍّ من العلم والدين في الآخر. فعلى سبيل المثال إذا قلنا بتمايزِ كلٍّ من العلم والدين عن الآخر واستقلالهما، فإنّا نكون قد سددنا الطريق أمام هذا التأثير. واذا قلنا بوحدتهما فإنّا فتحنا الباب على مصراعيه أمام تأثير أساسي لكلٍّ منهما على الآخر. ولكنّ التعمّق في الموضوع يجعلنا نصدّق بما هو عكس ما تبادر لنا في الأوّل، وهو أنّ الرؤية الكونية هي التي تحدّد كيفية العلاقة بين العلم والدين. فمع أنّ كلًّا من العلوم الطبيعة والوحي الديني اللذين يريد كلٌّ من العلم والدين أن يعالجهما لهما حقيقة وواقعية واحدة في العالم العيني، بيد أنّه قدّمت كلّ مدرسة فكرية تصوّرها عن العلم والدين، وبالأحرى معرفةً علميةً ومعرفةً دينيةً وفق الرؤية الكونية التي التزمت بها، فيجب المقارنة بين معرفتها أو تصوّراتها وتفسيراتها عن العلم والدين.

ونشير فيما يلي إلى الأقوال المختلفة حول الربط بين العلم والدين ضمن اتّجاهات ثلاثة ـ التعارض والتمايز والتكامل ـ ونحاول أن نحدّد دور الرؤية الكونية لكلّ مدرسة في كيفية معالجتها لهذه المدرسة:

أ ـ التعارض

من الممكن وقوع التعارض بين العلم والدين على فرض وقوع الوحدة والمشابهة بينهما في الموضوع أو الغاية أو المنهج. ولكن حينما تكون موضوعات الوحي والدين المرتبطة بالعلوم الإلهية بالمعنى الخاصّ مشتملةً على نفس الظواهر الطبيعة التي يدرسها العلم، فهذا يمهّد الأرضية للمعارضة بين العلم والدين، وحينما تكون غاية الدين هي تبيين الوقائع والأعيان الطبيعية فهذا يسبّب التعارض، وحينما يتّحد منهج الإلهيات والعلم في الدراسة فهذا يفتح المجال لتعارضهما أيضًا.

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 198]

إنّ أتباع المذهب الطبيعي (philosophical naturalism) الذين يعتمدون المنطق التجريبي ومعطياته مصدرًا وحيدًا للمعرفة، والأصوليين (Fundamentalism) أو أتباع النصّيّة (textualism) الذين يعوّلون على ظواهر النصّ الديني التي يعدّونها قطعيةً هم من المنتسبين إلى هذا الاتّجاه.

هناك بعض المتدينين المثقفين الذين يتسّمكون بظواهر النصوص الدينية وينطلقون منها، ثمّ

يأخذون بالنظريات العلمية التي توافق هذه الظواهر فيعبّرون عنها بالعلم الصادق، في مقابل النظريات المعارضة مع ظواهر النصوص الدينية، فيعبّرون عنها بالعلم الباطل.

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 199]

إنّ المناقشات الكثيرة حول نظرية التطوّر الدارويني، لا سيّما في الولايات المتّحدة بين الملحدين الذين كانوا يتمسّكون بهذه النظرية لرفض الدين، وبعض المتديّنين النصّيّين الذين كانوا يرون في هذه النظرية تعارضًا مع ما كانوا يظنّونه معتقدًا دينيًّا لهم هي من أمثلة هذا القسم.

ب- التمايز

ذهب كثيرٌ من المدارس الفكرية إلى تمايز مقولتي العلم والدين، وتعلّقهما بساحتين منفصلتين تمامًا عن الآخر. ويعتقد أتباع هذا التيّار بتمايز العلم والدين في كلّ من الموضوعات والمناهج و الغايات، فلن يحدث أي تعارض بينهما أبدًا. فعلى معتقد هؤلاء أنّ موضوع الدين هو الله، بينما موضوع العلم هو الطبيعة. الوحي هو المصدر لمعرفة الله، لكنّ مصدر معرفة حقائق الطبيعة هو الحواسّ والعقل. يستهدف الدين تحقيق القرب الإلهي، بينما يحاول العلم استيعاب حقائق الكون. تتمثّل لغة العلم بروح الفرضية والتخمين ومحاولة السيطرة على الطبيعة، لكنّ لغة الدين تتجلّى في طقوس العبادة و الخضوع. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 63]

إنّ أتباع المدارس الأرثوذوكسية الجديدة والوجودية والوضعية وفلسفة اللغة هم من القائلين بهذه الفكرة ولكن طبق تفاسير وطرق مختلفة تتلاءم مع رؤيتهم الكونية ومبانيهم الفلسفية.

[Peterson, Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, p. 200]

لا شكّ أنّ كلًّا من القائلين بتمايز العلم والدين نظر إلى العلم والدين والربط بينهما من نافذة رؤيته الكونية، ومن ثمّ حكم بتمايز العلم والدين. فعلى سبيل المثال اعتبر الأرثوذكس الجدد موضوع العلم هو عالم الطبيعة وموضع الدين هو تجلّي الإله في المسيح، كما اعتبروا غاية العلم معرفة الأنماط الحاكمة على العالم، وغاية الدين إعداد الإنسان لكي يواجه الإله، أمّا منهج العلم عندهم فهو التعقّل والتجربة البشرية، ومنهج الدين هو تجلّي الإله للإنسان، وكلّ ذلك وفق رؤيتهم الكونية.

أمّا الرؤية الكونية لأتباع المدرسة الوجودية فتقتضي أن يعدّوا الأشياء المادّية ودورها ووظائفها موضوعَ العلم، ولكنّ موضوع الدين عندهم هو الواقعية الشخصية والأخلاقية. وأمّا غاية العلم في رؤيتهم فهي معرفة علاقة الشخص بالأشياء، وغاية الدين هي معرفة علاقة الشخص بالإله.

أمّا بالنسبة إلى المنهج العلمي فإنّه خالٍ عن الشعور والأحاسيس عندهم، في حين أنّ منهج الدين مفعمٌ بالهواجس الشخصية والأحاسيس في نظرهم. أمّا أتباع المدرسة الوضعية فكانوا يرون موضوع العلم هو الأعيان القابلة للتجربة، وموضوع الدين هو الأعيان غير القابلة للتجربة مثل الإله، ومنهج العلم في نظرهم كان عبارةً عن تحكيم العلم التجريبي الذي كان عندهم هو المنهج الصحيح الوحيد لمعرفة الحكم الصادق، فالعلم التجريبي في نظرهم هو الطريق الحقيقي لكسب المعرفة، ولا يمكن للدين الذي يسلك منهجًا غير تجريبيٍّ أن يعطي معرفةً حقيقيةً. وقد بلغ الأمر من الإفراط في الوضعية عند الوضعيين المنطقيين إلى حدٍّ أنّهم اعتقدوا بخلوّ القضايا غير التجريبية من المعنى، فهكذا يحصل التمايز عندهم بين العلم بقضاياه ذات المعنى، و بين الدين بقضاياه التي تفتقر إلى المعنى والمفهوم.

أمّا بالنسبة إلى من يتبنّون منهج فلسفة اللغة، فإنّهم يعتقدون بلعبتين لغويّتين مختلفتين تمامًا للدين والعلم. فإنّ موضوع البحث في العلم عندهم هو قضايا وظيفتها تبيين الخارج، وموضوع الدين هو قضايا وظيفتها التكامل الروحي أو إيجاد الاطمئنان النفسي. وفي رؤية أتباع فلسفة اللغة تتمثّل غاية العلم في لغتها التي تدعو إلى التنبّؤ والتحكّم، كما أنّ غاية الدين تتمثّل في لغتها التي ترمي إلى مقاصد عبادية، ولتوفير الرخاء الروحي والاطمئنان.

جـ- التكاملية

يعتقد بعضهم بعلاقة التكامل بين العلم والدين، بحيث يحاول كل منهما تقديم تبيينات صادقة مختلفة يكمل بعضها بعضًا على أساس مناهج وغايات مختلفة. فبينما يطرح تيّار التعارض تفسيرات واحدة لموضوع واحد، يطرح تيّار التمايز تفسيراتٍ مختلفةً عن موضوعات مختلفة، ويذهب أتباع تيّار التكامل إلى تفسيرات مختلفة للدين والعلم لموضوع واحد؛ إذ يحاول بعض أتباع هذا التيّار أن يتعاملوا مع مدّعيات الأديان معاملة المفروضات العلميّة، ويحاول بعضهم الآخر أن يدرجوا العلم والدين ضمن فرضيات أو أطر أعمّ. على أساس هذه الرؤية يسعى العلم إلى كشف علل الوقائع، ويسعى الدين إلى كشف معنى الوقائع.

وقد أشار بعض الباحثين إلى هذه النزعة تحت عنوان "التفاعل"، واعتقدوا بأنّ كلًّا من العلم والدين يمكنهما أن يستفيد من تجارب الآخر، فعلى سبيل المثال أنّ العلم يطرح تساؤلاتٍ حول بداية نشوء الكون وكيفية نهاية العالم، غير أنّه عاجزٌ عن الإجابة عليها، وهو ما يمكن للإلهيات أن تضطلع به. يساهم التفاعل بين العلم والدين - في نظر هؤلاء الباحثين- في الحيلولة دون وقوع حالات الإفراط والتفريط في كلٍّ منهما؛ إذ يتولّى ذلك تحذير المتديّنين من التعامل الساذج مع النصوص الدينية، وينبّه العلماء التجريبيّين لئلّا يتورّطوا في نزعات التعميم والإطلاق والوثنية. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم

الديني، ص 64]

اتّضح لنا من خلال سرد رؤى المدارس المختلفة حول قضيّة الربط بين العلم والدين بأنّ الاختلاف في كيفية تصوير الربط بينهما يأتي من خلال الاختلاف في الرؤى الكونية، فالطريق المنهجي والمنطقي في الحكم بين هذه الأقوال هي معالجة رؤاها الكونية، كما أنّ أفضل طريق لمعرفة العلاقة الحقيقية بين العلم والدين هو البحث عن الرؤية الكونية الصحيحة. ونحن نعتقد بأنّ الإنسان بأداةٍ معرفيةٍ مثل العقل، وبمصادر معرفيةٍ مثل البدهيات العقلية، وبمنهج معرفي مثل الاستدلال البرهاني، وبرؤية معرفية مثل الرؤية الواقعية، يمكنه أن يحدّد الخطوط الأصلية العامّة للرؤية الكونية الصحيحة لتصل إلى الدين الصحيح الذي يؤيّد مكتسبات هذه الرؤية الكونية ونتائجها، فيطابق العقل السليم والفطرة الإنسانية. فيثري هذا الدين الصحيح العقل ويكمّل مشواره في تقديم عونٍ له ليحصل على رؤية كونية كاملة شاملة، تعتني بكلّ جوانب حياته وأبعاده الوجودية، فلا ينتهي دور العقل بعدما وصل إلى الدين الصحيح، بل يبدأ العقل بدور جديد، فبعدما كان العقل معيارًا يصبح مفتاحًا ومصباحًا في الدين أيضًا، والتوضيح أنّ العقل ميزان ومعيار في إثبات مبادئ الدين وأصوله، ومصباح في فهم الكتاب والسنّة وتلقّي الأحكام الشرعية واستنباطها، ومفتاح في إدراك خصوصيات الأحكام وأسرارها. [جوادى آملى، شريعت در آينه معرفت، ص 213 و214]

إنّ هذه الرؤية الكونية التي تأتي بصورة منظومة كاملة متماسكة حصل عليها العقل إمّا بصورة مستقلّة وإمّا بصورة غير مستقلّة وبمدد الدين.

فهكذا وضمن هذه الصورة يمكن الكلام عن الربط بين العلم والدين ضمن مفهوم "العلم الديني" الذي نحاول أن نوضح ملامحه في البحث التالي.

خامسًا: العلم الديني

يعتقد بعضهم بأنّ نظرية العلم الديني هي أفضل رؤيةٍ يمكننا أن ننظر من خلالها إلى العلاقة بين العلم والدين [خسروپناه، كلام جديد با رويكرد اسلامى، ص 384]؛ إذ لن يحدث أيّ نوعٍ من التعارض بين الحقلين. إنّ نظرية العلم الديني ليست نظريةً لتحديد العلم وتضييق أفق رؤيته، بل هي نظرية تسعى لتحكيم البنى المعرفية وتسديد الرؤية الكونية للعلم. فهي طريقة للإجابة الصحيحة للإشكاليات التي يطرحها العلم؛ وذلك أنّ هذا الأخير يفتقر في ذاته إلى الأداة المعرفية التي تصلح للإجابة عن تلك التساؤلات. إنّ العلم يقع تلو الدين؛ إذ إنّه لا يوازيه أساسًا، وبعبارة أخرى فإنّ العلم يقع بعد الدين في المستوى الطولي وليس بجانبه في مستوى العرضي. فممّا لا شكّ فيه أنّ العلم مع محدوديته في الموضوع والمنهج والغاية يشكّل قسمًا من منظومة البشر المعرفية وليس كلّها. فعلى الإنسان أن يسعى

لبناء منظومة فكرية صحيحة وعميقة ومنسجمة، بحيث يقع كلّ جزء من هذه المنظومة في مكانه الحقيقي اللائق به. إنّ نظرية العلم الديني هي طريق إلى الحقيقة والواقع، فليست منفعة العلم الديني راجعةً إلى المجتمع الديني فحسب، بل إنّها تنفع المجتمع البشري بأجمعه.

إنّ مجموعةً كبيرةً من العلماء والباحثين الذين ينتمون إلى تيّارات فكرية إسلامية مختلفة، ومن علماء الطبيعة وعلماء الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية، والفلاسفة والحكماء والفقهاء والمتكلّمين أبدوا رأيهم في هذا المجال، فقدّموا نموذجهم الذي يبيّن كيفية التنظير وإنتاج العلم وفق رؤية شاملة تأخذ جذورها وتشيّد مبانيها وفق الرؤية الكونية الدينية. ويبدو أنّ هذه الرؤية صحيحة وعميقة لا سيّما إذا لاحظنا دور الدين الحقيقي في تصوير الحقيقة للإنسان وترسيم الخطوط العريضة في كيفية سلوكه في مختلف مناحي الحياة.

إنّ تيّار العقلانية الإسلامية الذي يبدأ سلوكه المعرفي بالعقل المستقلّ ليثبت مباني الدين الصحيح وأصوله ينقاد بحكم العقل المستقلّ نفسه إلى المعارف المستخرجة والمستنبطة من القرآن والسنّة؛ لأنّه أثبت صحّتها وصدقها من جانب، كما أنّه أثبت محدودية العقل في قدرته على أنّ يجيب عن كلّ مسائل الإنسان من جانب آخر. ومن هنا تحاول العقلانية الإسلامية أن توضّح المباني الصحيحة لتكوين الرؤية الكونية الصحيحة التي ينطلق منها العلم. فتعمد إلى تقديم رؤية صحيحة عن عالم الوجود والأنسان.

إنّ بعض التعارضات بين العلم والدين وخصوصًا في العلوم الإنسانية، إنّما تنبعث عن الفرضيات القبلية الميتافيزيقية لهذه العلوم، حيث تؤثّر على القضايا والبيانات العلمية. ومع تغيير المعلومات المسبقة الميتافيزيقية للعلمانية، وتبديلها بمفروضات قبلية ميتافيزيقية إسلامية، يمكننا أن نقضي على هذا التعارض. [خسروپناه، کلام جدید با رویکرد اسلامی، ص 384]

لا يقوم العلماء بالبحث العلمي في خلاٍ معرفيٍّ، بل إنّهم ـ وطوال القيام بالدراسة والبحث منذ البداية ومع مرحلة طرح الفرضية حتّى النهاية التي تتمثّل في مرحلة إبداء النظرية ـ متأثّرون بمعارف ومعلومات لم يحصلوا عليها من خلال البحث العلمي وبطريقة تجريبية، بل إنّها معلوماتٌ قد لا يتنبّه لها الباحث، بل تنبّه عليها الرؤية الكونية التي يلتزم بها هو. فعلى سبيل المثال شاع بين العلماء كثيرٌ من الفروض المسبقة مثل أنّ الغاية من التنظير عندهم هي تنظيم التجارب الإنسانية والتنبّؤ بالظواهر، وليس توصيف حقيقةٍ وواقعيةٍ ما وراء الظواهر، أو أنّ الطبيعة قابلةٌ للفهم ويمكن توصيفها من خلال لغةٍ رياضيةٍ، أو أنّ قانونًا واحدًا يحكم على العالم الفيزيائيّ. [گلشنی، دیدگاه های فلسفی فیزیکدانان معاصر، 359]

هناك شواهد ومؤيدات كثيرة لصالح هذه التحليل، فعلى سبيل المثال أذعن ماكس بورن (Max Born) عام 1926 بأنّ ما أنجزه في مجال الذرّة كان تعميمًا فلسفيًّا لا فيزيائيًّا. [گلشني، من العلم العلماني

إلى العلم الديني، ص 98]

إنّنا ومن خلال رصد نشاط العلماء البحثي في العلوم الطبيعية، ومع النظر إلى تاريخ العلم وتطوّر النظريات في العلوم الطبيعية، يمكننا القول إنّ الرؤى الكونية والمعلومات المسبقة لدى الباحثين تؤثّر على النشاط العلمي ضمن مختلف مراحله. وقد رصد الدكتور مهدي گلشني في جهدٍ مميّزٍ هذا التأثير على مختلف مراحل تكوين النظرية، ونشير فيما يأتي باختصار إلى رأيه:

1ـ في اختيار المسألة للبحث، فعلى سبيل المثال اختار كلٌّ من العالم الفيزياء الباكستاني محمد عبد السلام، وستيفن واينبرج (Steven Weinberg) وشيلدون غلاشو (Sheldon Lee Glashow) موضوع توحيد الطاقة النووية الضعيفة والطاقة الكهرومغناطيسية، ولكن كان لكلٍّ منهم دافعه الخاص للبحث في هذه المسألة. فبينما اختار غلاشو هذه المسألة لفائدتها في مقام العمل فإنّ واينبرغ اختبارها لأجل تبسيط القضايا، أمّا البروفيسور عبد السلام فقد كان انتخابه لها بدافع ديني؛ وذلك لأنّه كان يريد أن يستنتج من وحدة القوى الطبيعية وحدةَ التدبير، ومن هذا الأخير وحدة المدبِّر. [گلشني، من العلم العلماني إلى العلم الديني، ص 155]

2ـ في اختيار الاختبار وانتقاء المشاهدات، فعلى سبيل المثال خالف فيرنر هايزنبيرغ (Werner Heisenberg) تدشين الأجهزة المسرّعة القويّة، وهو ما تسبّب في تأخير التحقيقات حول الفيزياء دون الذرّيّة، وذلك أنّه خالف تصوّر إمكانية التجزئة غير المتناهية للذرّة.

3ـ في التعبير عن نتائج الاختبارات وتعميمها، فعلى سبيل المثال اعتمد بعض العلماء ـ لتبرير النظم الموجود في العالم وتصويره، وتجنّب التمسّك بالاتّفاق والصدفة في كيفيّة نشوء الكون بقوانينه المتينة ـ على التصميم الذكي الذي يلزم وجود مصمّم وخالق قادر حكيم، في حين التجأ بعضهم إلى فرضيات ونظريات مثل تفسير عوالم متعدّدة (Many-worlds interpretation) مع أنّه ليس هناك أيّ شاهد تجريبي على هذه الفرضية الأخيرة، وليس لها أيّ مبنًى إلّا رؤيتهم الإلحادية.

4ـ في التنظير العلمي، فمثلًا بعدما ساقت الشواهدُ العلماءَ إلى قبول نظرية الانفجار العظيم (Big Bang theory)، التجأ بعض العلماء الذين لم يريدوا أن يقتربوا إلى الاعتقاد بالله إلى بلورة بعض النظريات المنافسة أو دعمها؛ لأنّ نظرية الانفجار العظيم كانت تؤيّد نظرية الخلق.

5ـ في الإعلان العامّ للنظريات العلمية، على سبيل المثال لم يعلن أينشتاين نظرية النسبية العامّة إلّا بعد مضي سنتين؛ لأنّه كان معتقدًا بأصل العلّيّة، وكان يرى النسبية العامّة متعارضًا مع أصل العلّيّة، ومن هنا لم يعلن نظريته إلّا بعدما ارتفعت عنه الشبهة.

6ـ في التعبير عن النظريات العلمية، فتضييق عالم الوجود إلى نطاق المادّة ليس قراءةً علميةً وتجريبيةً، بل إنّه متّخذٌ من الرؤية الكونية المادّيّة.

7ـ في اختيار المعايير لتقييم النظريات العلمية ونقدها. فعلى سبيل المثال، بعدما قُدّمت نظرية ميكانيكا الكمّ والتعبير الإحصائي عنه، ناهض أينشتاين بعض المفاهيم التي تعبّر عن هذه النظرية، ولا سيّما بعد أن انتقد التيّار الكوبنهاغني لها، واتّهمها بأنّها غير واقعية وغير فاعلة.

8ـ في توجيه وظائف العلم. على سبيل المثال تعرّف الرؤية الكونية الدينية الإنسان بوصفه خليفة الله على الأرض وكونه مسؤولًا عن عمران الأرض، فمنطلقًا عن هذه الرؤية لن يذهب الإنسان إلى تخريب الطبيعة وهدمها بخلاف تلك الرؤى التي تحثّ على استثمار الأرض المفرط والتسلّط العدواني على الشعوب، فتنتهي إلى تخريب الطبيعة والدمار والفساد في الأرض. [حسنى، علم دينى، ص 54 ـ 60]

لا شكّ أنّ البحث العلمي إذا تمّ في براديغم (Paradigm) الرؤية الدينية أو إطارها فلن يحدث أيّ نوعٍ من التعارض والتصادم بين العلم والدين. فإذا كان العلم يتشكّل من مجموعةٍ من القضايا التي تصف لنا العالم الطبيعي ومظاهره، فإنّ النظريات العلمية التي تنتجها هذه الرؤية الكونية تشكّل نوعًا آخر من العلم يمكننا أن ننسبها إلى الدين ونسمّيها (العلم الديني)، ولا يضرّ هذه التسمية أنّ الرؤية الكونية والأسئلة الميتافيزيقية التي تجيب عليها تلك الرؤية لا تدخل في مسائل العلم، بل تشكّل المبادئ التصوّرية والتصديقية للعلم؛ لأنّه وإن كان كذلك ولكنّ تلك المبادئ هي على نحوٍ يجعل العلم بلغتها ومسائلها وجهتها يختلف عن العلم الذي يولد في أحضان رؤًى كونيةٍ أخرى. وبما أنّ العلم يتعيّن بهذه الصورة الخاصّة ببركة المبادئ الدينية، فتسميته بالعلم الديني تسميةٌ صحيحةٌ. كما يمكننا أيضًا أن نستفيد من تلك القضايا الموجودة في النصوص الدينية، والتي تشير إلى حقيقة العالم الطبيعي لنستلهم منها فرضياتٍ يمكن إدخالها في إطار حركة إنتاج النظريات العلمية.

فلا ريب في تأثير المبادئ الدينية ورؤيتها الكونية في تكوين علوم إنسانية خاصّة ومتعيّنة؛ لأنّ لهذه المبادئ تأثيرًا على مسائل العلوم الإنسانية، فالوظيفة الأصلية لهذه العلوم هي أن تصف الإنسان المحقّق والمطلوب والطريقة التي تؤدّي إلى الانسان المطلوب انطلاقًا من الإنسان المحقّق، ولا شكّ في أنّ للدين دورًا لا سيّما في الحقلين الأخيرين من العلوم الإنسانية.

النتيجة

لا يمكن للعلم أن يزوّد الإنسان برؤية كونية صحيحة وكاملة من خلال النظريات العلمية والمنهج العلمي الذي يقوم على المشاهدة والتجربة وحسب؛ لأنّ العلم هو نافذةٌ ضيّقةٌ إلى الحقيقة؛ فهو ينظر من خلال إطار ضيّق ـ وهو أداته المعرفية المحدودة وهي التجربة ـ إلى نطاق محدود وهو العالم المادّي. إنّ المعرفة الدينية الصحيحة ـ التي يُثبتها ويؤيّدها العقل المنطقي السليم من جهةٍ، وتُثري وتدعم العقل الإنساني من جهة أخرى ـ صالحةٌ لأن تقدّم رؤيةً كونيةً شاملةً تستوعب كلّ أبعاد الإنسان الوجودية والمعرفية، كما تزوّده بمنظومة مفهومية منسجمة ومترابطة تعطي معنًى وعمقًا وربطًا لكلّ أبعاد حياة الإنسان. إنّ هذه الرؤية الكونية ترسم خريطةً كاملةً ذات معنًى عن الإنسان وأفعاله تشتمل في ضمنها على كلّ نشاطات الإنسان وفعّاليّاته، بما في ذلك البحث العلمي والقيام بكشف حقائق الطبيعة والأمور المرتبطة بالإنسان ضمن العلوم الطبيعية أو الاجتماعية (الإنسانية). ففي ضوء ما طرحناه في المقال، إنّ دراسة موضوع العلاقة بين العلم والدين من منظر الرؤية الكونية المنبثقة عن كلٍّ منهما هو أفضل منهج لمعالجة الموضوع. فعلى أساس هذا المنهج، ليست العلاقة بين الدين ـ أو بالأحرى المعرفة الدينية الصحيحة ـ والعلم عَرْضيةً وفي مستوًى واحدٍ من حيث الترتيب المعرفي، بل هي طوليّةٌ. فالعلم لا يبدأ عمله من نقطة الصفر المعرفي، بل ينطلق من خلفيات ميتافيزيقية مسبقة، ومثقلة بفرضيات معرفية غير تجريبية تشكّل رؤيتها الكونية المسبقة، فلو شيّد العلم بحثَه على أسس معرفية رصينة أخذها من المعرفة الدينية الصحيحة، ونظّم نشاطه ورؤيته في ضوء شبكتها المفاهيمية، فإنّه يعرض نفسه في صورة جديدة يمكننا أن نسمّيها بالعلم الديني، والذي ـ مع التزامه بالمنهج التجريبي ـ لا يعارض الدين؛ لأنّه يتمتّع بخلفية معرفية متينة، وأفقٍ ورؤيةٍ وسيعةٍ وغايات ووظائف متعالية. إنّ الدين وفق هذه الرؤية ليس مانعًا أمام التقدّم العلميّ، بل من محفّزاته، فمثل هذه الرؤية الكونية كانت السبب في ظهور العصر الذهبي الإسلامي وإشعال فتيل شرارة النهضة العلمية الأوربّيّة.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

جوادى آملى، عبدالله، شريعت در آينه معرفت، نشر اسراء، قم، چاپ دوّم، 1378 ش.

جوادى آملى، عبدالله، منزلت عقل در هندسه معرفت دينى، نشر اسراء، قم، چاپ يكم، 1386 ش.

حسني، سيدحميدرضا و ديگران، علم دينى، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، چاپ ششم، 1392 ش.

خسروپناه، عبدالحسين، در جستجوى علوم انسانى اسلامى، نشر معارف، چاپ سوّم، 1397 ش.

خسروپناه، عبدالحسين، كلام جديد با رويكرد اسلامى، دفتر نشر معارف، چاپ يكم، 1389 ش.

السبحاني، جعفر، الملل والنحل، الناشر، مؤسسة الإمام الصادق، 1424 هـ

السبحاني، جعفر، رسالة في التحسين والتقبيح، مؤسسة الإمام الصادق، 1420 هـ

الغزالي، محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، تحقيق: سعد كريم الفقي، الناشر: دار ابن خلدون، الإسكندرية.

گلشنى، مهدى، ديدگاه هاى فلسفى فيزيكدانان معاصر، پژوهشگاه علوم انسانى و مطالعات فرهنگى، تهران، چاپ چهارم، 1385 ش.

گلشنى، مهدي، من العلم العلماني إلى العلم الديني، المترجم: سرمد الطائي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1424 هـ

مصباح اليزدي، محمدتقي، دروس في العقيدة الإسلامية، المترجم: السيد هاشم محمد، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، 1427 هـ

مطهرى، مرتضى، مجموعه آثار، تهران، نشر صدرا، چاپ هفتم، 1377 هـ

المظفر، محمدرضا، أصول الفقه، طبع إسماعيليان، قم، الطبعة الخامسة، 1375 ش.

الموسوي، سيد روح الله، الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، 2019 م.

الموسوي، سيد روح الله، القرآن والعقل الحداثي، الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية، 2018 م.

يوسفيان، حسن و احمدحسين شريفى، عقل و وحى، الناشر، پژوهشگاه فرهنگ وانديشه اسلامي، 1385 ش.

Refrence

Barbour Ian G, Issues in Science and Religion, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J., 1966.

Bowker, John, The Concise Oxford Dictionary of World Religions, Oxford University Press, 2005.

Carroll David W., Purpose and Cognition, Cambridge University Press, 2017.

Gutas, Dimitri, Ibn Sina [Avicenna], Stanford Encyclopedia of Philosophy, First published Thu Sep 15, 2016.

Hunt Shelby D., Controversy in Marketing Theory: For Reason, Realism, Truth, and Objectivity, M.E. Sharpe, 2003.

King, D. Brett, William Douglas Woody, Wayne Viney, History of Psychology: Ideas and Context, Routledge, 2015.

Peterson, Michael L., Reason & Religious Belief: An Introduction to the Philosophy of Religion, Oxford University Press, 1991.

Popper, Karl Raimund, The Logic of Scientific Discovery, Psychology Press, 2002.

Pye, Michael, Macmillan Dictionary of Religion, Palgrave Macmillan, 1993.

Sweetman, Brendan, Evolution, Chance, and God Understanding the Relationship between Evolution and Religion, Bloomsbury Academic An imprint of Bloomsbury Publishing Inc.